تلخيص وتعليق

أسبوع الجاحظ (*)

لمندوب الرسالة

أتينا فى الرسالة (١٩٥) على خلاصة ماقيل فى اليوم الأول من أسبوع الجاحظ الذى قامت به كلية الآداب، وقد كان هذا غاية ما أدركته الرسالة وهى تحت الطبع، ونعود فنقدم إلى قرائنا إجمال ماقيل فى الأيام التى تعاقبت بعد ذلك

اليوم الثانى

كان القول فى هذا اليوم للأستاذين : أمين الخولى، وعبدالوهاب حمودة، وكان على الأول أن يقول فى منهج التفكير عند الجاحظ، وكان على الثانى أن يقول فى أسلوب الجاحظ

وقد ابتدأ الأستاذ الخولى كلامه فقال : يقتضينا منهج البحث والتفكير - ونحن نتكلم عن منهج الجاحظ فى التفكير أن نعرف هل كان الجاحظ يقول بالمعرفة أم كان سوفسطائياً، لأنه كان يقول بالشىء وضده. والحق أنه كان يقول بالمعرفة وينتهجها، وله فى ذلك من الآثار كتاب المعرفة وكتاب الجوابات وغيرهامن الكتب التى لم تصلنا، إلا أن موضوعاتها تدل على أن الرجل كان من القائلين بالمعرفة. قال الأستاذ : وطريق المعرفة عند الجاحظ للحواس والعقل على اتهام للحواس واطمئنان للعقل، ولا شك أن الجاحظ كان له فى الدين والأدب والحيوان وكثير من النواحى، وكان له فى كل ناحية من هذه منهج تفكير ينتهجه، فهل كان فى كل منهج منها على حظ واحد من الاجادة ودرجة متفقة فى السير ؟ إننا نرى أنه كان فى كل مناهج تفكيره متكلما أكثر منه أى شىء آخر، فقد كان الرجل من علماء الكلام، وكان يتخذ الكلام صناعة وتلك كانت شنشنة المعتزلة فإنهم أهل جدل وكلام ومناظرة، وقد أخذ الجاحظ منهجهم واحتذاهم، وقد أمعن فى ذلك حتى طغى منهجه الكلامى على تفكيره الأدبى. فكان يحفل بالجدل ويعنى باختلافات القوم يسردها وينقدها. ثم عرض لمذهب الرجل فى الصدق والكذب وقال : انه كان يحتج للشىء وضده تطبيقاً على رأيه فى الصدق !!

وتكلم على منهجه فى الرواية فاورد كلامه فى كتاب الحيوان عن اصطناع الكتب ثم قال : ومنهج الجاحظ فى ذلك مبنى على العيان والخبر، ولكنه ينقد ماوصل إليه من الأخبار ويرده إلى اليقين العقلى كما انتقد الخطبة المنسوبة لمعاوية (١)..

وأتى بعد ذلك على منهجه النظرى فقال: إنه كان يحترم العقل ولكنه مع ذلك لا يرى أنه يكفى لسعادة الناس فى دينهم ودنياهم ؛ ثم هو يحترم أشياء قد جاءت على غير النهج العقلى وإنما هى نظرية سماعية كخلق عيسى وحواء وغير ذلك. وكان يرى أن الشرع انما جاء حاداً للعقل. وكان الجاحظ يشك فلسفيا ولكنه شك المتكلم يكتفى بالظواهر والمظاهر لأنه يعتد بعقله ويحترمه

قال : وكان الجاحظ يأخذ بالمنهج التجريبى ولكن منهجه فى ذلك كان ناقصا ؛ ثم عرض لنظريته فى المشابهة بين الانسان والقرد، وقارن ذلك بنظرية « دارون » ليظهر الفرق بين التجربة الناقصه والتجربة الكاملة الممحصة. وضاق الوقت عن أن يتكلم الأستاذ فى منهج الجاحظ الفنى فاعتذر وقد ختم كلامه بقوله : إن منهجنا فى تكريم الجاحظ منهج ناقص، لأن آثار الرجل لم تصلنا كاملة، فلعلنا نعمل على اخراج آثاره للناس، فبذلك نكون قد كرمنا الجاحظ حقا وذكرناه وانتفعنا به

وقام من بعده الأستاذ حمودة فقال : إن أسلوب الجاحظ مرآة نفسه وحسه، وصورة عقله ومزاجه، وقد عرف الجاحظ فى أسلوبه بخصائص لم يسبق اليها، منها : مزج الفكاهة بالجد، والبرهان المقنع بالتهكم الموجع، وسبب ذلك دمامة شكله، فإن أهل الدمامة قوم تشيع فيهم الدعابة ؛ واستدل على ذلك بما كان من حافظ وإمام العبد ونظير وأضرابهم. ثم تطرق الى دعابة الجاحظ فى شىء من البسط والإفاضة ثم قال : وكان الجاحظ يتخذ التهكم أسلوبا من أساليب النقد والاقناع، ورسالة التربيع والتدوير نمط من ذلك، وبعد أن قرأ الأستاذ فقرات من هذه الرسالة قال : وكثير من المتأدبين يحسبون أن ابن زيدون هو أول من اتخذ الأسلوب التهكمى فى رسالته الهزلية

(*) سمعنا أن كلية الآداب قررت طبع هذه المحاضرات فى كتاب خاص كما قررت من قبل ذلك طبع محاضراتها فى المتنبى، ولذلك لم تعط نسخها للصحف

(١) هذه الخطبة فى البيان والتبيين وقد قال الجاحظ إنها بخطب الامام على أشبه

الى ابن عبد وس، وانما هو تلميذ الجاحظ فى ذلك ، على أن فنه أشبه بالهجاء وأبعد من التهكم والسخر

ثم وازن بين الجاحظ وبين ابن المقفع فقال : ان ابن المقفع حكيم يستمد حكمته من نفسه ؛ فتجربة الدنيا هى التى كانت تملى عليه ما يكتب ، ولكن الجاحظ كان ينهج نهج من درس خطابة أرسطو فتأثر بها الى حد بعيد [1] ، ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة فى الأسلوب استعماله القياس المضمر وهو ما عرف عند البديعين بالمذهب الكلامى ؛ وقد كان الجاحظ أول من قال بهذا المذهب واستخدمه وأنكر وجوده فى القرآن وتابعه ابن المعتز ورد عليه ابن أبى الأصبع ... قال وانما أخذ الجاحظ ذلك من كتاب الخطابة لأرسطو . وهناك دلالة قوية تدل على أن الجاحظ قد انتفع بكتاب الخطابة ، ولكن هناك يعترضنا سؤال وهو أن الجاحظ قد أنكر أن لليونانيين خطابة ، والجواب : أن الجاحظ حينما قال ذلك قاله وهو يرد على الشعوبية الذين كانوا يقولون إن الخطابة عند كل الأمم تنقصا للعرب ، فموقف الرد هو الذى ألجأه الى ذلك الانكار . والجواب الثانى أنه لم يطلع على نصوص خطابية لليونانيين ، والثالث أنه انتقد التراجم والمترجمين لليونانية وانتقد على الخصوص ، كتاب المنطق بأنه قرأه فى أسلوب سقيم مترجم !!

فالجاحظ لا شك قد تأثر بكتاب الخطابة لأرسطو كثيراً ومنطقه ، وليس كتاب البيان والتبيين الا صدى لذلك الكتاب . وكان الجاحظ على طريقة أهل الخطابة يستخدم التمثيل اذا أحوجه الدليل وأعوزته الحجة ؛ ومن ذلك ما كان فى رسالته تفضيل السودان على البيضان . . . ثم قال : ومن خصائص الجاحظ : قصر الفقرات والازدواج ، وتعمد السجع دون أن يتكلفه ، وكذلك الافتنان فى الأسلوب ، والتنقل ، والاستطراد ، والتقصى للمعنى حتى لا يترك فيه بقية . أما الخصائص التى يشركه فيها غيره ، فالسهولة والسجع وما الى ذلك من خصائص الكتابة الشائعة فى ذلك العصر .

وبعد ، فاسلوب الجاحظ نتاج عقله وفكره أكثر منه نتاجا لروحه وعاطفته ؛ هذا فى رسائله العامة ، أما فى كتاباته الخاصة فقد كان يقصد الى التنميق والتنويق ، ويحفل بالديباجة المشرقة ، ويعتد بالشواهد والأمثال يقحمها فى ثنايا كلامه

(١) نخالف الأستاذ الفاضل فى هذا الرأى ونعتقد أن ابن المقفع أكبر تأثرا من الجاحظ بالثقافة الفارسية واليونانية ، وقد كانت كل حكمته أو جلها من ذلك المعين

اليوم الثالث

وفى اليوم الثالث تكلم الأديبان شوقى ضيف وعبد اللطيف حمزة ؛ فتكلم الأول عن الجاحظ بين النقد والبلاغة فقال : لقد كانت مكانة الجاحظ فى ذلك كمكانة أرسطو فى الخطابة عند اليونانيين ، وكان الجاحظ لا يكتب للخاصة فكان يعرف أن كتاباته فى حاجة شديدة إلى التوابل لتقريبها لأذهان الجمهور

ثم قال : والنقد لم يبدأ كفن إلا فى العصر الأموى ؛ وقد كانت الشعوبية هى أول حافز على النقد لأنها كانت حركة هدامة تشك فى كل شىء ، وكانت تشك فى بلاغة الأدب العربى ، والشك فى بلاغة الأدب العربى شك فى بلاغة القرآن !

ثم جاءت بعد ذلك بيئة الأدباء واللغويين فى المربد وغيره من أندية الثقافة فأدوا كثيراً فى خدمة النقد والبلاغة ، وقد اتصل الجاحظ بكل هذه البيئات وأخذ عنهم . ونحن يصعب علينا أن نحدد ما للرجل فى ذلك وأن نميز أقواله من الأقوال التى اقتبسها

ومهما يكن من شىء فالجاحظ قد فصل الأدب عن الأخلاق وروى كثيرا من الأدب العارى . وكان يطلب من الكتاب أن يتثقفوا ولكنه لم يطلب من الشعراء ذلك . والحق أن الجاحظ كان ناقدا ممتازا ، وكانت له طبيعة فى ذلك ؛ وكان حر الرأى فلم يقدم القديم لقدمه ، ولم يرفض الحديث لحداثته . وكان عربيا ولكنه كان يحترم شعراء الشعوبية ويقدمهم فمدح بشارا وأبا نواس وأمثالهم . ولقد كان الجاحظ بآرائه حرياً بان يخلق من حوله حركة أدبية حافلة لو أن النقاد تابعوه ، ولكنهم انصرفوا عن ذلك واكتفوا بنقد النصوص نقدا لفظياً نحوياً ولغوياً

وليس كتاب البيان والتبيين فيما أرى صدى لخطابة أرسطو [1] وأنا لا أشك فى أن الجاحظ لم يره ، وما ذكره

(١) هو هنا يرد على الأستاذ حموفة ولكنه لم يمس حجته بالتفنيد

ابن النديم لايفيد ذلك ، وإن كان العرب قد وقفوا على شيء من الثقافة اليونانية والجاحظ لم يكن من رجال المنطق . وقد عابه قدامة بانه لم يذكر أقسام البيان !!

وقد أثرت أراء الجاحظ فيمن جاء بعده [1] ، ولعل أهم هذه الأراء مسألة اللفظ والمعنى ، وقد أطال الجاحظ القول فى هذه المسألة وهى عنده قبل كل شيء مسألة دينية لاتصالها ببلاغة القرآن . وقد أسقط الجاحظ قيمة المعنى وجعل اللفظ هو كل شيء ؛ وقال إن المعانى مطروحة فى الطريق لكل الناس يلتقطها العامى وغيره . وقد فتن العلماء بعد الجاحظ بهذا الرأى ووافقوه عليه . وقلما نجد فيهم واحدا اهتم بالمعنى والبحث فيه ، بل إنهم أسقطوا المعنى ولم يروا له فضلا [2] !!

ومن بعد ذلك أخذ الأديب عبد اللطيف حمزة فى الكلام عن « الجاحظ المعتزلى » فابتدأ القول فى نشأة الاعتزال ، فعرض لحركة الحسن البصرى فى مسجد البصرة وما كان بينه وبين واصل ، ثم قال : ومضت الدولة الأموية ، وأتت من بعدها العباسية ، وجاء الفرس بمزاياهم وبلاياهم ، وأقول بلاياهم لأنهم جاؤوا بالالحاد والزندقة ورفعوا لواء الشعوبية ، ولاشك أن المعتزلة هم الذين استطاعوا أن يردوا هجمات الفرس وأن يكبتوا الشعوبين لأنهم تدرعوا لذلك بالنقل والعقل والفلسفة والكلام ، فكان المعتزلة قوة كبيرة تجاه الزنادقة والملاحدة .

وبعد أن أورد الأصول المعتبرة عند المعتزلة وشرحها وحدد العلاقة بينها وبين غيرها من الفرق قال : وكان للمعتزلة مدرستان ، واحدة فى البصرة ، والأخرى بالكوفة ، وقد كان من أقطاب الأولى النظام ثم تلميذه الجاحظ ، وكان المعتزلة على مقتضى تعاليمهم يتوارثون حرية الفكر ، فهم ولا شك جماعة أحرار الفكر كما يسميهم المستشرقون . وكان يطلق على كل اتباع رجل منهم اسم هذا الرجل فيقال النظامية لاتباع النظام ، والجاحظية لاتباع الجاحظ ، ولقد كان لهم بحكم مهمتهم فى كل ناحية من نواحى الفكر ، فكانت حركتهم - كما يقول الأستاذ أحمد أمين - إرهاصاً لحركة فلسفية منظمة تولاها الكندى والفارابى وابن سينا وأشكالهم .

ولقد أخذ الجاحظ عن المعتزلة جميع مزاياهم ، وكان بوقاً عظيما لآرائهم يذيعها فى الناس ويشرحها وقد ينتقدها ، ثم أشار إلى آثاره فى ذلك فقال : إن أكثر رسائله قد ضاعت فى أجواء العصور الخالية ، وقد وصلنا بعض نصوص تدلنا على أن الجاحظ كسائر المعتزلة يطعن على أهل الحديث الحشويين . وله رسالة فى مدح النبي ورسالة فى الاحتجاج للنبوة ، ورسائل أخرى فى الرد على اليهود والنصارى والرافضة وقد كانوا أعدى أعداء المعتزلة . ثم له رسالة فى فضيلة المعتزلة رد عليها ابن الراوندى برسالة سماها فضيحة المعتزلة وهى التى عنى بدحضها ابن الخياط فى الانتصار

ولكن مهما قيل فى الجاحظ المعتزلى وأخذه بحرية الرأى لابد أن يكون له نظر فى حرية الارادة وهى مسألة المسائل بين علماء الكلام ومبعث الخلاف بين الفرق المختلفة ، وقد كان الجاحظ كما عرفنا معتزليا شديد الاخلاص لفرقته . وأكبر الظن أن الرجل قد وجد حلا لهذه المسألة فى نظرية الطبيعيات . والظاهر أن الجاحظ قد طبق هذه النظرية على العالم الاخروى ، وقد حمله هذا على الكلام فى مسالة المعارف أو المدركات على أن مسألة الطبيعيات لم تكن من ابتداع الجاحظ ولكنه شرحها وبسطها وطبقها ، وإنما هى لاستاذه النظام ؛ وقد جاءت هذه النظرية عند بعض الفرق الاخرى ، حتى نظرية العوارف التى أشرنا إليها قد انتهج الجاحظ فيها نهج أرسطو ، فالمظاهر التى يتجلى فيها اعتزال الجاحظ تبدو فى تعصبه للمعتزلة والدفاع عن آرائهم والاشادة بفضلهم ، وخصوصاً بفضل أستاذه النظام ، ثم فى الاشياء التى عرف بها وخاصة رأيه فى حرية الارادة ، وأخذه بحرية الفكر إلى أبعد حد ، فإن الدولة كانت لاتشجع على حرية الرأى لغير المعتزلة [1] ، ومن ثم نعرف أن الجاحظ لم يصنف كثيرا لآراء المعتزلة ؛ ولكنه تولاها بالشرح والاذاعة.

(البقية فى العدد القادم) م . ف . ع

(١) أنظر تجد الاستاذ قد ناقض نفسه فيما يقول إن النقاد لم يتابعوا الجاحظ عاد يقول ان أراءه قد أثرت فيمن جاء بعده وهذا الرأى هو مانراه

(٢) الظاهر أن الأستاذ قد تأثر كثيرا مما كتبه الدكتور طه فى تقدمة نقد النثر ، والواقع أن قضية اللفظ والمعنى كانت من القضايا التى طال فيها جدال النقاد ، فاعتد بعضهم باللفظ واعتد بعضهم بالمعنى واعتد بعضهم بالاثنين معاً

(١) الذي نعرفه أن حرية الرأى كانت مكفولة لكل إنسان حتى وسمت ابن الراوندى فى مبادئه وصحافاته ، وقد كان رجلا متقلبا يرتزق من الطعن فى الأديان وأهل الفرق وكان يبيت مع اليهود ويصبح فى جانب النصارى